3

الإعجاز البلاغي في القصص القرآني

د. مهند عبد الرزاق عبد القادر

جامعة البصرة

خلاصة البحث:

بعض الدراسات ركزت على الجوانب التقنية للسرد دون التفاصيل الكبيرة، يظل هناك بعض الصعوبة في فصل بين أدبية القصة والسياق الديني، وقد تناولت بعض الدراسات القصص ، بشكل دقيق كجزء من رسالة دكتوراه حول بنية الخطاب السردي في القرآن الكريم، فالبراعة في السرد تُعَدُّ معجزة. هل استمتعت بسماع القرآن من البداية حتى وصولك إلى آيات التصوير القصصي و كأنك تشاهده امام عينك انها اللغة القرانية المعجزة و كأن القران الكريم يعرض عليك القصة الان و انت ما عليك الا ان تستمتع بجمال التذوق بكل ما تعني هذه الكلمة من معان وكيف تأثرت مع الأجواء العامة ؟ القران الكريم قدَّم هذه الحقيقة من خلال صورة مرئية متحركة تُبيِّن الحدث الذي لا يمكن وصفه بكلمات.

الكلمات المفتاحية: قصص الأنبياء، التفسير القرآني، الأساليب البلاغية، التناوب السردي

Research Conclusion:

Some studies have focused on the technical aspects of narration without large details, there remains some difficulty in separating the literary story from the religious context, and some studies have dealt with this surah accurately as part of a doctoral thesis on the structure of narrative discourse in the Holy Qur'an, prowess in narration is a miracle. Did you enjoy listening to the Qur'an from the beginning until you reached the verses of Yusuf, and how did the surah present this truth? The surah does not explicitly mention Yusuf's beauty or handsomeness, but rather presents this fact through an animated visual image showing the event that cannot be described in words.

Keywords: Stories of the Prophets, Quranic interpretation, rhetorical methods, narrative rotation

المقدمة:

تعتبر قصص الأنبياء في القرآن الكريم من أبرز المواضيع التي أثرت في نفوس المسلمين وأثرت في تشكيل الفهم الإسلامي والتأثير البلاغي الذي تحمله هذه القصص. تعتبر هذه الدراسة محاولة لفهم وتحليل الإعجاز البلاغي المتمثل في لغة وأسلوب قصص الأنبياء في القرآن الكريم.

يتطلب دراسة النص القرآني من الباحث الالتماس وجهه بحذر وحيطة، خوفًا من الوقوع في الزلل أو الخطأ، الذي قد يؤدي به إلى تجاوز حدود الدين في نظر بعض الأشخاص، وربما يكون مارقًا يستحق اللوم والتقريع في نظر آخرين. لذلك، يتطلب الأمر مراعاة الدقة الشديدة وتوخي الحذر في كل ما يقدمه الباحث من آراء، حيث تجعل قدسية النص الإلهي لكل كلمة ميزانًا خاصًا بها.

على الرغم من جلسة الدراسة القرآنية، فإنها جذبت الكثير من الباحثين الراغبين في فهم أسراره واكتشاف جمالياته، وكشف إعجازه اللغوي والفني، والذي يظل محاطًا بأساليب ووسائل تعبيرية لا ترقى إلى بلاغتها البليغة. تظل أسرار هذا النص تكشف لنا تدريجيًا حتى قيام الساعة.

قصة النبي يوسف عليه السلام قد نالت اهتمام الباحثين في كل مكان وزمان، نظرًا لكونها قصة فريدة في القرآن حيث امتلكت سورة كاملة باسمها، وتميزت برؤية حياته منذ صغره، ومرورًا بشبابه، وتوليه منصب عزيز مصر. شملت القصة المواجهة بينه وبين إخوته والأحداث التي تلتها، وأظهرت السورة عواطف وانفعالات ومكائد، رسمت لوحة من الفسيفساء تعكس طبائع البشر وعاداتهم، وأحكام المعاملات بينهم، وطرق العقوبة، وغيرها من العبر والعظات.

تحفل القصة القرآنية بسورة يوسف بأحداث وتفاصيل مثيرة، والتي استمدت بعضها من القصص الملهمة السابقة، ولربما لجأ بعض الباحثين إلى الاستعانة بتفصيلات من التوراة لم تُرد في النص القرآني. قدمت هذه القصة بتقنيات سردية مميزة في السورة، إلا أنها تحتاج إلى تفصيل وتحليل أكثر، مثل دراسة بنية الخطاب السردي في سورة يوسف وتجليات الرؤية في هذه السورة وقصة سيدنا يوسف كدراسة أدبية وغيرها.

من هنا نشأت فكرة هذا البحث في محاولة فهم تقنيات السرد الحديثة في النص القرآني، من خلال دراسة هذه التقنيات في سورة يوسف، وكشف جوانبها المتعددة.

مشكلة البحث:

1. الفرق بين السرد القصصي والسرد القرآني؟
2. وكيف استخدم النص القرآني تقنيات السرد المتعددة لتحقيق الهدف من القصة؟
3. وما دور الشخصيات الرئيسة والثانوية في تحقيق أهداف السرد؟

4. وما هي أنواع ومستويات السرد القرآني البارزة في سورة يوسف؟

أهمية البحث:

البحث يحمل أهمية كبيرة في عدة مجالات، إليك بعض الجوانب التي تبرز أهمية البحث:

- يُمكن البحث من استكشاف وفهم مفاهيم ومعلومات جديدة.
- يُسهم في توسيع دائرة المعرفة الفردية والجماعية.
- يُعزز البحث مهارات البحث والتحليل والتفكير النقدي.
- يُسهم في تطوير مهارات الكتابة والتواصل.
- يُمكن البحث من اكتشاف حلول جديدة وفتح آفاق للإبداع والابتكار.
- يُساهم في تطوير فهمنا للمشكلات وتقديم أفكار جديدة.
- يُمكن استخدام نتائج البحث لتطبيق التحسينات واتخاذ قرارات أفضل في مجموعة متنوعة من المجالات.
- يُسهم في تقديم حلول فعّالة للتحديات التي تواجه المجتمع والعلوم.
- يُسهم البحث في تقدم المجتمعات والدول من خلال تطوير المعرفة العلمية والتكنولوجية.
- يفتح الباب أمام اكتشافات وابتكارات جديدة.
- يقدم البحث أساسًا قويًا لاتخاذ قرارات مستنيرة في مختلف المجالات.
- يُمكن من تقييم الخيارات والنتائج بشكل أفضل.
- يُساهم البحث في تحقيق التقدم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي.
- يدعم في فهم التحديات التي تواجه المجتمع وتحديد الحلول المستدامة.

فرضيات البحث:

يمكن صياغتها على شكل مجموع من الأسئلة وهي كالتالي:

1. هل يُمكن اعتبار قصص الأنبياء في القرآن كنماذج للإعجاز اللغوي والبلاغي؟
2. كيف قدَّم القرآن قصص الأنبياء بشكل يفرض نفسه على القارئ بقوة وتأثير؟
3. هل القصص القرآنية تحمل رسائل روحية وأخلاقية، وكيف تنقل هذه الرسائل بشكل بلاغي؟
4. كيف تتنوع تقنيات البلاغة في قصص الأنبياء وكيف يساهم ذلك في تحسين فن السرد القرآني؟
5. هل الإعجاز اللغوي في قصص الأنبياء يمكن أن يكون له تأثير نفسي على القارئ؟
6. هل هناك اتساق أسلوبي في سرد قصص الأنبياء يعكس السمات البلاغية المميزة للقرآن الكريم؟

أهداف البحث:

أهداف البحث تعتمد على سياق ومجال الدراسة، ولكن يمكن تلخيص الأهداف الرئيسية للبحث في النقاط التالية:

- تحليل البنية اللغوية والسردية في قصص الأنبياء.
- فحص الاستخدام البلاغي للغة القرآن في وصف الأحداث والشخصيات.
- استكشاف التأثير الفني لقصص الأنبياء في نقل الرسائل الدينية والأخلاقية.
- يتيح البحث فهماً أعمق للظواهر أو المفاهيم المحددة التي يركز عليها الباحث.
- يهدف البحث إلى الإجابة على أسئلة معينة وتحليل مشكلة محددة.
- يسعى البحث إلى جمع بيانات ذات صلة وتحليلها بشكل منهجي لفهم الظواهر.
- يهدف البحث إلى زيادة المعرفة في مجال معين أو توسيع الفهم الحالي.
- يمكن للبحث أن يساهم في تطوير نظريات جديدة أو تحسين الإطار النظري لمجال معين.
- يستهدف البحث تقديم حلاً لمشكلة معينة أو إعطاء توصيات قابلة للتنفيذ.
- يهدف البحث إلى توسيع المعرفة المتاحة وتحديث أدبيات المجال.
- يمكن أن يتطلب البحث توجيه النتائج لتحسين العمليات أو التطبيقات العملية.
- يهدف البحث إلى المساهمة في التقدم العلمي أو الفهم التقني أو الثقافي.
- يستخدم البحث للتحقق من صحة الفرضيات والأفكار المسبقة.

منهجية البحث:

- استخدام تحليل نصي للقصص القرآنية المتعلقة بالأنبياء.
- دراسة التقنيات البلاغية المستخدمة في السرد والوصف.
- مقارنة بين قصص الأنبياء لفهم تفاوت الأساليب البلاغية.

المبحث الأول: مفهوم الإعجاز البياني في القران الكريم

تعتبر مسألة الإعجاز القرآني واحدة من أبرز القضايا التي اهتم بها العلماء على مر العصور، سواء في العصور القديمة أو الحديثة. ويكمن الهدف الرئيسي من مناقشة قضية الإعجاز في القرآن الكريم في تسليط الضوء على جماليات هذا الكتاب الخالد، بدلًا من الرد على شبهات المعترضين أو دحض جهل الجاهلين.

تُعَدُّ كتب الإعجاز حاملةً للجديد في كل عصر وزمان، حيث تكشف الإعجازات البيانية عن عجز الجن والإنس على مجاراة القرآن في بيانه. كانت الإعجازات البيانية هي الأساس الذي ظهر أولاً كشفًا ودراسة، وكانت أقدم من الإعجازات العلمية.[1]

ويُفهم الإعجاز القرآني كمفهوم يركز على تسليط الضوء على إعجاز البلاغة القرآنية من حيث وظيفتها وخصائصها ومظهرها. وقد اشتملت هذه المفاهيم على بيان عجز البشر، سواء الجن أو

الإنس، عن مجاراة قدرات القرآن في البيان. وكان لفهم الإعجاز القرآني دورٌ أساسي في تطوير البلاغة القرآنية من حيث الوظيفة، الخاصية، والمظهر.

وعلى لسان الأدباء والنقاد، دارت كلمة "البيان"، محملة بمعنى الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، والقدرة على إقناع العقول واستمالة النفوس.[2]

الخصائص العامة للأسلوب القرآني

تلعب دورًا حيويًا في فهم العمق اللغوي للنصوص القرآنية، وتتضمن هذه الخصائص:

الأسلوب الجمالي: يتميز أسلوب القرآن بجماله الفائق في البلاغة والفصاحة. على الرغم من استخدامه لنفس حروف اللغة البشرية، يظل القرآن متميزًا بأسلوب لا يضاهى يتفوق على أي خلق، ويحتفظ بنفس الجمال عبر العصور، وذلك بسبب عمق معانيه التي تناسب جميع الأزمنة والأماكن.

الأسلوب التعبيري: يعتمد القرآن في تعبيره على أسلوب يتميز بالتفرد عن الأساليب الشائعة للتعبير. يحتوي على مجموعة متنوعة من الأساليب التعبيرية، من قصص ومواعظ واحتجاجات وحكم، ورغم التنوع، يبقى الأسلوب فائقًا في الفصاحة والبلاغة.[3]

التعبير القرآني: يتسم التعبير في القرآن بالارتفاع والجمال، سواء في لفظه أو معناه. يحتفظ بتوازن دقيق بين القوة والأثر، ويحقق الدقة في التعبير عن المعاني بطريقة تناسب جميع الفهم والثقافات.

التكرار والتصوير: يظهر التكرار في القرآن بشكل بارز، سواء في تكرار الألفاظ والجمل أو في تكرار المواضيع والقصص. يأتي ذلك للتأكيد والتوكيد، ويتضمن التصوير والتشبيه لزيادة التأثير والفهم العميق.

المفردات القرآنية: تتميز الكلمات التي تشكل الجمل القرآنية بجمال وقوة اللفظ والمعنى. تتسم بالسهولة في الفهم والجمال السمعي، وتظهر تفردًا في تراكيبها وأساليبها.[4]

الجملة القرآنية وصياغتها: يظهر القرآن كمصدر رئيسي لفهم البلاغة، حيث تتألف الجملة القرآنية من كلمات وحروف، وتحمل معاني شديدة العمق. يتميز بتنوع الأسلوب في صياغة الجمل والتعبير، مما يعزز البلاغة ويعكس الإعجاز اللغوي.

أمثلة الإعجاز البياني في القرآن الكريم

هل الإعجاز البياني في القرآن الكريم مقتصر على آيات محدّدة؟ القرآن الكريم غنيّ بالبيان في جميع سوره وآياته والأمثلة على ذلك كثيرة منها: الخوف قال تعالى: (فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)، والخوف معنى من المعاني التي وردت في القرآن الكريم، وهذه الآية قالها تعالى قي حديثه عن موسى عليه السلام، ثم عبّر عن الخوف في صورة تشبيهية في قوله تعالى: (رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ)، فنقل التشبيه مشاعر الخوف في أحداقهم الزائغة المضطربة من شدة الخوف، وجسّدها في حركة عين من يكون في سكرات الموت، وهي صورة عجيبة مدهشة، ثم يرتدي الخوف ثوب الكناية فتبرزه في صورة حسيّة بالغة التأثير. يقول تعالى

مصورًا حالة المسلمين وقد أحاطت بهم جيوش الكفر ليلة الأحزاب: (إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا)[٢١]، وهنا مشهد لقوم استبدّ بهم الخوف فجمدوا في مكانهم، وهربت الأبصار من أحداقها وتوقفت أنفاسهم، وهو تعبير مصوّر لحالة الخوف والكربة والضيق يرسمها في ملامح الوجوه وحركات القلوب، وتتناوب أساليب البيان على اللفظة الواحدة، فتكتسي في تعابيرها المختلفة حللًا متباينة من المعاني. اليد في موضع آخر وردت كلمة "اليد" فوضعت لمعنى الجارحة المعروفة، واستعملها القرآن دالّة على معناها الموضوعة له كما في قوله تعالى: (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ) وتأتي اليد كناية عن البطش والقتل كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ)الكتاب والقرآن قال تعالى في سورة البقرة: (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ)[5]، وفي سورة الإسراء: (إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)[6] فأشار إلى الكتاب في آية البقرة بقوله "ذلك" الذي هو للبعيد ليدلّ على علوّه وبعده عن الريب، وأنّه بعيد المنال عن أن يؤتى بمثله، وأشار إلى القرآن في آية الإسراء بقوله "هذا" الذي هو للقريب، فلمّا كان الأمر في ذكر هداية الناس ومعرفتهم به وبأحكامه، انبغى أن يكون قريبًا منهم[7].

المبحث الثاني: تقنيات السرد والتشويق في القران الكريم

يتميز السرد القرآني عن السرد القصصي بطابعه الواقعي، حيث يتناول الأحداث الحقيقية ويضيف إليها جمالياته الفنية. يأخذ السرد القرآني بكل جوانب الإنسان، من قلبه وحواسه، إلى مستويات اللغة، بما في ذلك النحو، والصرف، والدلالة، والأسلوب. القرآن يتميز بأسلوب متسق في كل آية وسورة، مع التركيز على التناغم الفريد للغة، ولا يمكن التفريق بين السور أو الأقسام بسبب هذا التوحيد الأسلوبي.[8]

تحتوي النصوص القرآنية على أشكال سردية رفيعة المستوى، مثل تعدد الأصوات والسرد الحماسي، وتقديم الزمان والمكان بشكل فريد. يمثل تحدي الله للعرب بأن يأتوا بمثل القرآن أو حتى بسورة مماثلة، والذي احتوى على أفضل القصص بأسلوب إعجازي لا يمكن للإنسان أن يصل إليه.

يمكن تصنيف السرد إلى نوعين: موضوعي وذاتي. في النمط الموضوعي، يكون الكاتب على دراية بكل تفاصيل القصة، يتتبع مصير كل شخصية حتى أفكارها الخاصة. وقد برز هذا الأسلوب بوضوح في سورة يوسف، حيث يُظهر يوسف استرسالية تفكيره وتخطيطه للأحداث. أما النمط الذاتي، فهو السرد الذي يتم تتبع الحكاية من خلال عيون الراوي، دون التفصيل في أفكار الشخصيات.[9]

أو الجهة المستمعة وقد أظهر تأثير مدرسة الشكالنيين الروس في علم السرد من خلال تقسيم توماشيفسكي للحكاية إلى متن حكائي ومبنى حكائي. يشير المتن الحكائي إلى مجموع الأحداث المتصلة التي يتم إخبارنا بها في العمل، بينما يتألف المبنى الحكائي من نفس الأحداث، ولكن

يراعي نظام ظهورها في العمل الأدبي ويفرق بين مجموع الأحداث وطريقة ترتيبها وتنظيمها داخل العمل.

تجسد سورة يوسف هذين النوعين بشكل فريد من خلال تشابك الأحداث وتآزرها في نسق فريد يجمع بين تعاقب الأحداث وترتيبها الزمني. تعتمد بنية الحبكة السردية على نظرة عميقة، حيث يتم ترتيب الأحداث ونموها وتطورها بناءً على التسلسل الزمني والروابط بين شخصيات القصة. يصاعد التوتر والصراع بشكل متزايد من خلال هذه الأحداث حتى تصل إلى ذروتها، ثم يتم إعادة السرد إلى موقف سابق ليتقدم بسلاسة في خضم الأحداث.[10]

تميزت القصص القرآنية بأسلوبها المعجز والذي يستمد مواده الحكائية والأحداث من الواقع، ويشكلها بشكل فني متقن. في سورة يوسف، يعتمد السرد بشكل أساسي على شخصية محورية هي يوسف عليه السلام، وتظهر التداخلات والتوترات لإضفاء عمق وتعقيد على الحبكة السردية.

تختلف القصص الأدبية بينما يستلهم الكتّاب أحداثها إما من خيالهم الخصب أو من واقعهم الملهم. يعكس هذا التنوع قدرة كل كاتب على الإبداع. على الجانب الآخر، تظل القصص القرآنية تاريخية معجزة، حيث يصعب على القصاص أن يصل إلى مستوى هذه الإعجاز.[11]

تتفاوت بدايات القصص حسب رؤية الكتّاب وقدرتهم على جذب انتباه القرّاء. يُحقق هذا الجذب من خلال عناصر متعددة مثل التشويق وغرابة المواقف. في سياق القصص القرآنية، يعتمد السرد بشكل أساسي على التشويق دون أن يتجاوز حدود الواقع، مما يجعل القارئ يعيش الأحداث بشغف ويسعى لفهم النهاية واستكشاف المقاصد والأهداف.

تظهر براعة السرد القرآني في الابتداء بمشهد غريب يستفز الانتباه، مثل ما بدأت به سورة يوسف. يتميز السرد بتناول رؤية مناميه غير تقليدية، ما يضفي تفرّداً وإعجازاً يستدعي اهتمام المتلقي. البداية المفاجئة للمتلقي تحمل تشويقًا يدفعه لمتابعة القصة، وتُعتبر عنصرًا أساسيًا للتهيئة النفسية التي تدفع المتلقي لمتابعة الأحداث بشغف وصالح إلى نهايتها.[12]

تتجلى براعة السرد القرآني في أنه يتبع نمط قصصي مغلق حيث تكون البداية هي النهاية، مما يتيح للنص تحقيق التكامل والتوازن في تقديم الأحداث وتوجيه الانتباه نحو الختام المتوقع.

قد تنوعت مستويات السرد في سورة يوسف بين سرد ابتدائي يعتمد على ضمير الحكي المنسوب إلى راوي القصة، كما في قوله تعالى: ("وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ)" [13] في السرد الثانوي، يُسند السرد إلى شخصيات القصة بضمير المتكلم، حيث يسود الحوار المباشر والتحدث بلسان هذه الشخصيات. هذا النوع يظهر في قصة يوسف ويتمثل في العديد من المواقع مثل قوله تعالى: ("إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ)" [14] يتضح أن ضمير

الغياب أو الحكاية هو المتسيد في هذا النوع من السرد. يستخدم هذا الضمير، الذي يُسمى أحيانًا "ضمير الحكاية"، لتقديم الأحداث بشكل فعّال ومثير.

تتضمن السرد مجموعة من التقنيات التي تعززه وتثريه، وتعتبر التقنية الأولى هي "استباق الزمن" وفقًا لتعريفها من قبل جيرار جينت. يُفهم استباق الزمن كعملية سردية تشير إلى حركة السرد من خلال الإشارة إلى حدث في المستقبل أو التلميح إليه قبل حدوثه. هذه التقنية نادرة في الرواية الواقعية والقصة التقليدية عمومًا.

يتضمن السرد مجموعة من التقنيات التي تعززها وتثريها، ومن بين هذه التقنيات يأتي الاستباق كطريقة للإشارة إلى أحداث مستقبلية وإلقاء الضوء على مصير الشخصيات. يُظهر هذا التقنية في سورة يوسف بشكل واضح، حيث يتنبأ يوسف بأحداث حياته المستقبلية، مما يُضيف عنصر التشويق والتوقعات للسرد.

يظهر استشراف آخر عبر قول أب يعقوب عليه السلام، الذي يعبر عن خوفه من أن يتعرض يوسف للخطر، وهذا يسلط الضوء على تناقض بين وجود الإخوة الذين يجب أن يحموا يوسف وقلق الأب حيال مصير ابنه. تُظهر هذه التقنية الخلفية والخوف من الذئب، الذي يُعتبر رمزًا للتهديد والخطر، ويُستخدم بشكل ذكي لتصاعد التوتر في السرد.[15]

كما في قوله تعالى: "قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ"[16] استشراف الزمن يظهر أيضًا في رؤية السجينين لمصيرهما، وتفسير يوسف للرؤيتين، حيث تُشير هذه التقنية إلى مصير المستقبل وتُسلط الضوء على تفاؤل يوسف وقدرته على فهم الرؤى الروحية. يتمثل دور السجن في السرد في أنه يُظهر التناقض بين دوره كعقوبة للمذنبين والمجرمين وبين استخدامه كفرصة لنشر الدعوة إلى الله وتوجيه الهداية للمساجين.[17]

قصة سيدنا إبراهيم في القران الكريم:

في سياق قصصٍ الإعجاز البياني، تبرز قصة النبي إبراهيم عليه السلام بلونٍ مميّز. لنستمتع سويًا بالسرد الفريد والراقي الذي أُقدِم به في القرآن الكريم.

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ)[18]

هل لاحظت الاستهزاء في هذا الاستفهام؟ ما هي هذه الصور التي تعبدونها؟ يظهر في هذا التعبير نوعًا من الاستهجان الرفيع، حيث لا يتضمن صخب السخرية البشرية، بل هو استهزاء متفوق وراقٍ. يستمع النبي إبراهيم إلى والده وقومه وهم يشرحون ماهية هذه الصور، وهم يقعون في الفخ الذي وُضع لهم، ويشرحون كما لو أنه لا يعلم ما يشرحون.

في هذه السورة، نجد التفكير الداخلي أو تيار الوعي، الذي لم تكن تعرفه القصة العالمية إلا من خلال أعمال جويس وبروست. ولم تظهر في القصة العربية إلا في أواخر الأربعينيات من هذا القرن. هل استطعت أن تحدد مكان التفكير الداخلي في هذه الآيات؟ إنه واضح ولا يتطلب أي جهد بحث.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ٢ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)سورة الأنعام: آية ٧٤–٧٩

اتخذ إبراهيم عليه السلام من الشمس والقمر وسائل تعليمية، إذ كان يعرف الحق منذ اللحظة الأولى، ولكنه كان يرغب في توجيه قومه ليهتدوا. النجم يظهر ويشرق، لكن القمر أيضًا يظهر ويغيب. إذًا، القمر... ولكنه يغيب أيضًا. يُظهِر بحيرته وتردده، يتساءل بفزع: "أهدني يا الله، كمن هو في حيرة"، كما لو أنه يبحث عن الإرشاد. ثم يُظهِر الضيق الذي يشعر به تجاه هذه الأشياء التي أُعتبرت أربابًا، وفي النهاية يتوجه إلى الله القدير، الذي يعرفه وهو مستمر على الهدى. صرخته هي صرخة رجاء لتوجيهه ربه، وعلى الرغم من أنه على هدى، يُظهِر أمام قومه أنه يبحث ليهتدوا هم، وليس هو. يعلم إبراهيم عليه السلام الهدى، ولكن الكفر لا يزال جزءًا من نفوس قومه، الذين لا يؤمنون بالحق رغم وضوحه. يناقشونه بشدة ويبالغون في الجدال، وهو يصيح إليهم:

(وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)سورة الأنعام: من آية ٨٠–٨١

هل لاحظت كيف تبدو كلمة "الأمن" مطمئنة في هذا السياق مثلما هي مطمئنة في الآية الكريمة؟ إن اختيار اللفظ هو ذروة الإبداع الفني، ويُعَدّ استخدام الألفاظ في الآيات القرآنية إعجازًا. حاول أن تبحث في كل ما تشاء في اللغة العربية، وحاول بكل ما أوتيت من ذكاء أدبي أن تغيّر كلمة بأخرى. لكن لا تقم بهذا الفعل، فإنك لن تكون قادرًا على ذلك، إنها مجرد إعجاز.

(وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.)

إن الله، سبحانه، يُظهر لك بوضوح أن أنبياءه يتلقون الإرشاد الذي يسعون إليه ليهديوا الناس. حتى إذا لم يهتدِ قومهم، يكون ذريتهم على الهدى. إن الله، سبحانه، أعظم من أن يترك نبيه إلا ليرضيه.

حتى إذا لم يُرضِ قومه برسالته، فإن ذريته تأتي برسالة أخرى، وما هو أعظم من عدل الله، الذي هو أرحم الراحمين؟

ليس لدي شك في لحظة أن كتَّاب القصة القصيرة في منشأها قد قرؤوا هذا القرآن واستفادوا منه. قيل إن سرفانتس كان أول من أسس القصة القصيرة، وكانت قصصه قصصًا قصيرة متنوعة، وعندما أُصدِرت كانت محط اهتمام وإعجاب الجميع وتطورت القصة القصيرة بعد ذلك حتى أبدع فيها جي دي موبسان وأنوريه جوركي وغيرهم. ثم انتقلت هذه الفنون إلى الأدب العربي، وأصبحت تتفوق على أدب الشباب في الوقت الحاضر.

لقد قرأت الكثير من القصص القصيرة، سواء كانت على الإذاعة، أو كانت ممثلة على التلفزيون، أو نُشرت في الجريدة والمجلة. ولدي قناعة شخصية بفهم ما يجعل القصة القصيرة جيدة أو سيئة. الآن، دعنا نتحدث عن القصة القصيرة المفهومة، ولكن لا أُحب أن أقول "التقليدية"، فقد شهدت القصة القصيرة تجديدًا كبيرًا لم يؤثر في محتواها ولم يجعلها ثابتة على صورتها الأولى. حيث أصبحت الحداثة في القصة القصيرة تعبر عن التقنيات الفنية دون أن تفقد معانيها.

يقولون إن وحدة الزمان شرط أساسي، حيث يجب ألا تتجاوز الزمان تجاوز الزمن في الرواية، ويفترض في القصة القصيرة أن تكون حادثة صغيرة على جانب هام من الأهمية تلفت نظر الكاتب. ويشير هذا إلى أهمية لحظة الفن التي يمسك بها الكاتب ويعيد تشكيلها في إطار فني.

يقولون أيضًا إن وحدة الموضوع ضرورية، حيث يجب أن تركز القصة القصيرة على جانب واحد من الحياة وتُركز عليه اهتمام الكاتب. وعندما يتم وضع الإطار القصصي، يجب أن يظل واضحًا ولا يختلط بموضوعات أخرى تفقد الأهمية التي جذبت انتباه الكاتب عند اختيارها لتكون موضوع قصته.

أخيرًا، يشيرون إلى أن القصة القصيرة يجب أن تكون مركزة ومُرَكَّزة تمامًا في تعبيراتها، حتى يكون كل تعبير له تأثير على تطور القصة. وبالرغم من أن بعض الكتّاب يُفضلون تجميل قصصهم بالأسلوب العربي الرشيق، فإن هذا الشرط ليس ضروريًا وسطوع التعبير يظل هو الأهم، هكذا تتجلى المعجزة في هذه القصة القصيرة.

(رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ ٤ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ) سورة الصافات: من آية ١٠٠–١٠٧

اكتملت هذه المعجزة في ستين كلمة فقط، حيث أظهرت قصة فريدة مُعجِزة في جوانب عدة. من الناحية الزمنية، حدثت في لحظة واحدة، حيث يُفترض أن يقوم الأب بقتل ابنه، ولكن يتدخل ربه لينقذ الابن.

من الناحية الموضوعية، بقيت القصة مُرَكَّزة على فكرة واحدة، حيث يُخبر الأب ابنه بالأمر الذي وحي إليه، ويُجيب الابن بإيمانه العظيم "افعل ما تُؤمَر به". لم تنحرف القصة عن هدفها بأدنى درجة.

من الناحية الشخصية، تحتوي القصة على شخصيتين فقط، الأب والابن، وهذا يبرز التركيز على الأحداث الرئيسية ويُظهِر قوة القصة حتى في بساطتها. وهنا يظهر أن الشخصية المسطحة لا تُعتبر عيبًا في العمل القصصي، بل قد تُقدِم أعظم الدراما.

بالنسبة للهندسة القصصية، تتضح بداية وقمة ونهاية واضحة. تبدأ القصة بدعاء إبراهيم ليأتيه صالح، تصل إلى ذروتها عندما يُطلَب منه قتل ابنه، وتنتهي بفدائهما واستعادة الابن للحياة. البداية والقمة والنهاية تُظهِر مهارة إبداعية فائقة، يظهر أن هذه القصة تُشكِّل إعجازًا حقيقيًا، والاستمرار في تقديم قصة بهذا الشكل يبرز الفهم العميق للقصة والدراما.

الخاتمة:

علم السرد يعتبر من بين العلوم التي جذبت انتباه الباحثين خلال فترة الحداثة، حيث استمروا في تحليل أساليبه والتمييز بينه وبين أنواع أدبية أخرى مثل القصة والحكاية. وعند ربط هذا السرد بالنص القرآني، يكتسب أهمية أكبر نظرًا إلى تحدي الله سبحانه وتعالى للعرب وغيرهم بتقديم مثله، وكانت بالغة النص القرآني هي واحدة من العوامل المهمة في الإعجاز القرآني.

تبرز سورة يوسف كنموذج للسرد، حيث تشغل السورة بأكملها بهذا النوع من السرد الذي لا يتكرر في السور القرآنية الأخرى، حتى أنها سُميت باسم بطلها الرئيس يوسف. في هذه السورة، يتم استعراض حياة يوسف منذ طفولته وصباه وحتى توليه لمنصب عزيز في مصر، واستقباله لإخوته وأبناء إسرائيل، وتتناول العديد من الجوانب مثل العواطف والانفعالات والمكائد، مما يعكس طبائع البشر وعاداتهم وأحكام المعاملات بينهم، بالإضافة إلى أساليب العقوبة والعبر والعظات.

ورغم أن بعض الدراسات ركزت على الجوانب التقنية للسرد دون التفاصيل الكبيرة، يظل هناك بعض الصعوبة في فصل بين أدبية القصة والسياق الديني، وقد تناولت بعض الدراسات هذه السورة بشكل دقيق كجزء من رسالة دكتوراه حول بنية الخطاب السردي في القرآن الكريم.

براعة في السرد تُعَدُّ معجزة. هل استمتعت بسماع القرآن من البداية حتى وصولك إلى آيات يوسف، وكيف قدَّمت السورة هذه الحقيقة؟ السورة لم تذكر جمال يوسف أو وسامته بشكل صريح، بل قدَّمت هذه الحقيقة من خلال صورة مرئية متحركة تُبيِّن الحدث الذي لا يمكن وصفه بكلمات. النسوة قطعن أيديهن، فكانت في حالة ذهول لا يمكن وصفه، يظهر الجمال أمامهن كجمال لا يُفهَم بالكلمات. هل هناك وصف أروع وأصدق من ذلك؟

تقنيات القصة القصيرة الحديثة التي تميزت بها، مثل الهيكل الفني، وعامل التشويق، والاختصار، والتبسيط، والتداعي الحر للأفكار، والرمز، واختيار الكلمات بدقة. يظهر كيف احتوى القرآن هذه

التقنيات منذ قرون. على سبيل المثال، يستعرض بنية الهيكل الفني في قصة يوسف بتفصيل، ويظهر التشويق والتداعي الحر للأفكار في قصة إبراهيم. بالإضافة إلى ذلك، يقدم أمثلة من قصص أخرى في القرآن، مظهرًا التقنيات الفنية التي تميّزها.

النتائج:

أهم نتائج هذا البحث الرئيسية التي توصلنا إليها، ويمكن تلخيصها فيما يلي:

1. تنوعت مستويات السرد في سورة يوسف بين سرد ابتدائي يعتمد على ضمير الحكاية المرتبط براوي القصة، وسرد ثانوي يعتمد على تسليط الضوء على شخصيات القصة بواسطة ضمير المتكلم، حيث يسيطر الحوار المباشر ولغة الشخصيات في هذا النوع من السرد.
2. شملت سورة يوسف أنواعًا متعددة من الحذف، حيث تم تكثيف الأحداث من خلال الحذف الضمني والصريح، وسيطر الحذف الضمني على معظم الأحداث للتأكيد على ترابطها وتسريع تقدم السرد في القصة.
3. أظهرت السورة استخدام وصف متقن ومتنوع، حيث تم دمج الوصف بالمشهد لإيجاد صورة حية ومتحركة أمام المتلقي، مما أثر إيجابًا على تفاعله مع الأحداث.
4. أضافت سورة يوسف عناصر جديدة في تناول الشخصيات في النص القرآني، بما في ذلك الاهتمام بالصفات الجسدية للبطل يوسف وعلاقته مع امرأة العزيز، وهو ما أثر بشكل كبير في تشابك الأحداث وتطورها.
5. شهدت قصة يوسف وجود شخصيات متعددة بين شخصيات رئيسة تتطور وشخصيات ثانوية تلعب أدوارًا جزئية، ورغم عدم ذكر أسمائها، إلا أن التركيز كان على سلوكياتها وأفعالها.
6. انعكس دور المكان على مجريات الأحداث وطبائع الشخصيات، حيث اختلطت صفة المكر والتربص بيوسف في البيئتين البدوية ومصر، لكن المكان الثاني أظهر التمكين ليوسف بعد ذلك.
7. أظهر التحديد الزمني لبقاء يوسف في السجن العنصر الفريد في السرد، حيث استخدم الزمن كوسيلة لتكثيف الأحداث وتأكيد عجز يوسف عن تسيير الأحداث بمفرده، مما أظهر سيطرة السارد على تطور الأحداث بشكل فعّال.

التوصيات:

بناءً على النتائج التي توصل إليها البحث، يُقترح تقديم التوصيات التالية:

1. يفضل القيام بدراسات إضافية لفهم تنوع وأنواع السرد في القرآن الكريم، مع التركيز على السور القصصية الأخرى، لتوسيع فهمنا لتقنيات السرد المستخدمة في القرآن.

2. يُنصح بدراسات توظيف التحليل النفسي للشخصيات في القصص القرآنية لفهم دوافعها وتأثيرات أفعالها على تطور السرد والدروس المستفادة منها.
3. يمكن إجراء دراسات مكملة لفهم تأثير المكان على سير الأحداث وتطور الشخصيات، وكيف يتجاوب المكان مع المضمون السردي.
4. يُقترح فحص كيفية استخدام عناصر الوصف البصري في السرد القرآني، مثل الرؤى والصور البيئية، لتحليل تأثيرها على استجابة المتلقي وتفاعله مع القصة.
5. يمكن تحقيق تكامل أكبر بين دراسات السرد القرآني والأدب الحديث لفهم كيف يمكن توظيف تقنيات السرد في القصص الحديثة بناءً على الخبرة القرآنية.
6. يُقترح تكامل تقنيات السرد الحديثة التي تم استخدامها في قصة يوسف في التعليم لتحفيز الطلاب وتعزيز فهمهم للدروس الأخلاقية والثقافية المشتملة في السورة.

الهوامش:

(1) تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دكتور شوقي ضيف، ص 33.

(2) المرجع نفسه، ص 33.

(3) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، لإبراهيم بن عمر البقاعي 4، دار الكتاب الإسلامي القاهرة. ص444

(4) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، لإبراهيم بن عمر البقاعي ·423

(5) سورة البقرة: 24

(6) سورة الإسراء: 25

(7) سورة الإسراء: 26

(8) القصص القرآني في منطقه ومفهومه ، للشيخ عبد الكريم الخطيب ، ص 40 ، دار المعرفة ، بيروت.

(9) القصص القرآني في منطقه ومفهومه ، للشيخ عبد الكريم الخطيب ، ص 43.

(10) المرجع نفسه، 48

(11) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ط4 ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص 225

(12) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ص 245

(13) سورة يوسف: 56

(14) سورة يوسف: 4

(15) إعجاز القرآن للباقلاني، الطبعة الخامسة، دار المعارف، مصر، ص 61

(16) سورة يوسف: الآية 3

(17) إعجاز القرآن للباقلاني، ص 68

(18) سورة الأنبياء: 57/51

المصادر والمراجع:

1. الباقلاني ، إعجاز القرآن ، الطبعة الخامسة، دار المعارف، مصر ، (د.ت)
2. البقاعي، ابراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتاب الإسلامي القاهرة . (د.ت)
3. الخطيب، عبد الكريم، القصص القرآني في منطقه ومفهومه، دار المعرفة ، بيروت. (د.ت)
4. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ط4، (د.ت)
5. ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، (د.ت)، (د.م)